الحياة اللّيتورجيَّة لكنيسة الإسكندرية[1]
(٣)

القرن الرَّابع الميلادي

جاء القرن الرَّابع الميلادي، وإذا ببذرة الحنطة التي أُلقيت في القرنين الأوَّل والثَّاني للميلاد قد أزهرت، وأينعت، ونمت شجرة مورقة في القرن الثَّالث الميلادي، استظلَّ بظلها الكثيرون. وابتداءً من الربع الثاني من القرن الرابع الميلادي (بداية بدعة أريوس، وظهور القديس أثناسيوس)، صارت الشجرة عظيمة مُثمرة، اغتذت كل الكنيسة الجامعة من ثمرها. وفيها بلغت كنيسة الإسكندريَّة كمال نُضجها، وطبقت شُهرتُها الآفاق، صائرة مُلهِمة ومُعلِّمة المسكونة كلِّها.

القوانين التي تحكم تطوُّر النصوص اللّيتورجيَّة المسيحيَّة:

١. تطوُّر النَّص اللّيتورجي ينتقل من التركيب الأكثر بساطة إلى التركيب الأكثر تعقيدًا.

٢. النُّصوص اللَّيتورجيَّة ذات الأصول اليهوديَّة هي الأكثر قِدَمًا من نظيرتها ذات الأصول الهلّينيَّة. فالنص اللّيتورجي المسيحي ذو الأصل اليهودي، والموروث من المجمع اليهودي، يبدأ بالتَّحيَّة من الكاهن للشعب، ثمَّ تأتي في النصوص اللّيتورجية بصِيَغ الشُّكر والتَّسبيح. أمَّا تلك ذات الأصل الهلّيني، فتبدأ أيضًا بالتحيَّة، ويعقبها النِّداء: "القلوب إلى فوق"، ثم تأتي صِيَغ الصلوات في شكل طلبة أو توسُّل. وهكذا نشأت اللّيتورجيَّة المسيحيَّة، من مثل هذا التَّوافق بين هذين النَّوعين من الصِّيَغ اللّيتورجيَّة.

٣. النص اللّيتورجي الأقدم، هو الأقل تأثُّرًا بنصوص الكتاب المقدس. والأكثر حداثة، هو الأكثر اقتداءً بها، حيث يُشحن غالبًا بعناصر تحوي كثيرًا من التعاليم الإيمانية التي تشرح الإيمان شرحًا مُستفيضًا.

٤. النصوص اللَّيتورجية المُتأخِّرة تتطور في اتِّخاذها لشكل خطابي حماسي، ثم تُصبح شيئًا فشيئًا أسيرة فصاحة لُغويَّة، تلك التي تغيب تمامًا في صلوات الديداخي والتقليد الرسولي لهيبوليتس.

---

(١) نُتابع في هذا العدد تقديم موجز عن التاريخ اللّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة، وهو عن كتاب للراهب أثناسيوس المقاري، صَدَرَ بنفس الاسم، سنة ٢٠١٨م.

ظهور الرهبنة المصرية أُم الرهبانيات في العالم:

تأسَّست أوَّل جماعة رهبانية سنة ٣٠٥م، على يد القديس أنطونيوس (٢٥١- ٣٥٦م.)، والذي يُعتبر أب رهبان العالم. وفي سنة ٣١٨م، أنشأ القديس باخوميوس (٢٩٢- ٣٤٨م)، أول دير في طبانسين في صعيد مصر. وفي سنة٣٤٠م، انطلق القديس مقار الكبير (٣٤٠- ٣٩٠م) لبريَّة شهيت بقيادة الشَّاروبيم، بعد توحُّده لمدة ١٠ سنوات. وقام بزيارتين للقديس أنطونيوس، حيث تسلَّم منه أسرار الحياة الرهبانية. وانتظمت الحياة الرهبانيَّة في شهيت، وبلغت ذروتها سنة ٣٥٦م. ولم تأتِ نهاية القرن الرابع، إلَّا وكان هناك أكثر من خمسة آلاف راهب في نتريا والقلالي بصحراء مصر.

ومع أوائل الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، وَفَدَ إلى بريَّة شهيت كثيرٌ من الأجانب للتعرُّف على الحياة الرهبانية، والتي انتشرت بسرعةٍ مُذهلة في كل قارات العالم، عبورًا بفلسطين بآسيا، وفرنسا بأوروبا.

وانتشرت كثيرٌ من الكُتُب والآثار الأدبيَّة الرهبانيَّة، مثل: "أقوال الآباء *Apophtegmata Patrum*"، و "التاريخ اَللوزياكي" الذي كتبه بلاديوس كشاهد عيان سنة ٤١٩م، و "تاريخ الحياة الرهبانية في مصر- *Historia Monachorum in Aegypto*" وهو لمؤلّفٍ مجهول كتبه في مصر سنة ٤١٩م. بالإضافة إلى كتابَي يوحنا كاسيان: "المعاهد *Institute*"، "المحاورات *Conferences*"، واللَّذين كتبهما حوالي سنة ٤٢٠م، أي بعد مغادرته الإسقيط بعشرين سنة.

هذه الأعمال الأدبيَّة ، إلى جوار عظات القديسَيْن أنطونيوس الكبير ومقاريوس الكبير، كانت ولا زالت هي المنبع الرئيسي للحياة الروحيَّة في الشرق، وحتى اليوم. وامتدَّ تأثيرها على التقليد الليتورجي إلى كنائس الإيبارشيات والكاتدرائيات في بلدان العالم المسيحي آنئذ.

الخدمة الكاتدرائيَّة والخدمة الدَّيريَّة:

تكوَّنت الخدمة الكاتدرائيَّة في أساسها من اجتماعَين يُعقدان في الكنيسة يوميًّا: واحدٌ في الصباح، والآخر في المساء، مع سهر أسبوعي ليلة الأحد، وليالي الأعياد. ويحوي هذا السهر اللَّيلي قراءات مع ترتيل المزامير، إلى جانب صلوات أخرى. وتُعدُّ مصر أوَّل شاهد في الكنيسة الجامعة على هذه العبادة.

أمَّا الخدمة الديريَّة، فتختلف بين أديرة الصَّعيد والأديرة البحريَّة:

+ ففي أديرة الصعيد، وبحسب النظام الباخومي، كان هناك أربع خدمات يوميَّة، وهي: ١- صلاة السَّحر، وتُعرف أيضًا بصلاة الفجر. ٢- صلاة الغروب، وتُسمَّى ايضًا بصلاة إيقاد السراج. ٣- صلاة الليل، وكانت تُقام في نصف الليل. ٤- صلاة الساعة الثالثة. بالإضافة إلى صلاة تُقال في الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر)، قبل الوجبة التي يتناولها الرهبان كل يوم، قبل انعزالهم لقلالليهم.

+ وبخصوص الأديرة البحريَّة، ولا سيَّما في إسقيط مصر، فلم تكن هناك في النهار خدمة جماعيَّة تجمع كل الرهبان معًا، بل خدمتان ليليَّتان يوميًّا: واحدة في الغروب، وواحدة في نصف الّليل.

وفي كلتا الخدمتين كان يُرتَّل اثنا عشر مزمورًا، مع صلاة "هلليلويا"، ويُتبع بالذوكصا "المجد للآب..."، مع فصلَين من الكتاب المقدَّس. أمَّا التَّحليل الختامي الذي كان يقوله الرئيس، فكان هو آخر عناصر هذه الخدمة الرَّهبانيَّة الوقورة.

الفوارق الهامة بين الخدمة الكاتدرائيَّة والخدمة الدَّيريَّة:

+ الخدمة الكاتدرائيَّة هي خدمة شعبيَّة، تُميِّزها مراسيم طقسيَّة، مثل إيقاد المصابيح، ورفع بخور، ومواكب احتفاليَّة، وترديد أنتيفونات وألحان جماعيَّة، ورُتَب إكليروس متنوِّعة، لكلٍّ منها عملها المُتميِّز في الكنيسة، وهي أمور تُعدُّ غريبة تمامًا في الخدمة الدَّيريَّة، ذلك لأن هذه الأخيرة هي خدمة بسيطة قنوعة، يُغلِّفها صمتٌ مقدَّس في كثيرٍ من أجزائها، مع سجودٍ متواتر إلى الأرض، مصحوبًا بصلواتٍ سريَّة قلبيَّة، وجلوس مع إصغاء طويل لفصول كتابيَّة تُناسب الحياة الدَّيريَّة الهادئة.

+ الخدمة الكاتدرائيَّة، هي خدمة تسبيح وتشفُّع، أمَّا الخدمة الدَّيريَّة فهي بالأكثر خدمة إصغاء إلى فصول كتابيَّة تُقرأ فيها. ولكن باستثناء كنيسة مصر، التي أعطت للتسبيح في الخدمة الدَّيريَّة مكانةً كُبرى، بجانب إعطائها أهمِّية رئيسيَّة للقراءات الكتابيِّة في كِلَا خدمتيها، الدَّيريَّة والكاتدرائيَّة، دونًا عن كلِّ كنائس العالم.

+ في عدد المزامير: الخدمة الكاتدرائيَّة فيها ترتيل موجز للمزامير، حيث تحوي مزامير مُنتخبة، تُختار لتُناسب الخدمة التي وُضِعَت لأجلها. أمَّا ترتيل المزامير في الخدمات الدَّيريَّة، فهو ترتيلٌ متصل للمزامير، تُرتَّل بترتيبها الذي وردت به في كتاب المزامير، دون أيِّ مُحاولة

لجعل هذه المزامير مُناسِبة في اختيارها للسَّاعة التي تُتلى فيها.

+ في طريقة أداء الترتيل بالمزامير: في الخدمة الكاتدرائيَّة، فإن تلاوة المزامير هي مُشاركة شعبيَّة، وذلك بإدخال مردَّات وأنتيفونات أو قرار يُردِّده الشَّعب تكرارًا، إمَّا بآية مُحدَّدة بذاتها من المزمور لا تتغيَّر، أو بالمرد "هلليلويا". أمَّا في الخدمة الدَّيريَّة، فالرهبان يُردِّدون المزامير آية آية في هدوء، أو يستمعون إلى تلاوة المزامير من مُرتِّلٍ واحد، بينما الجميع يصغون.

وعلى مدى قرونٍ طويلة في مصر، حدث تداخُل بين هاتين الخدمتين: اللّيتورجيَّة والدَّيريَّة، وإن ظلَّت سِمَات كلٍّ خدمةٍ مُتمايزة عن الأخرى، دون مزج أو خلط بينهما. فكانتا خدمتين مُركَّبتين بعضهما فوق بعض، دون ذوبان لعناصر الواحدة في الأخرى. ولعلَّ السبب في ذلك يرجع لابتعاد الأديرة عن مراكز المُدن.

في التراث المعماري والفني للكنيسة:

+ تؤكِّد الدراسات المعماريَّة أن المعمار القبطي له أصالته الخاصة به، بالرغم من التَّشابُه الذي يبدو بين الكنائس القبطيَّة وتلك التي لها الطَّابع البازيليكي. ولعلَّ الذي دعا البعض إلى هذا الاعتقاد، هو بسبب امتياز الكنائس القبطيَّة بكثرة القباب. ولكن الحقيقة هي أنَّ الأقباط هم الذين اخترعوا القباب منذ العصر الفرعوني، ثم أدخلوها في كنائسهم في العصر المسيحي، ولكنه صار يُعرف فيما بعد باسم: "الطراز البيزنطي". وعن مصر، أخذ الإغريق وكل الغرب هذا الطراز، ومِن ثمَّ انتشر في كل كنائس الدُّنيا.

+ جُرن المعموديَّة في كنائس مصر يكون عادةً مُربَّع الشَّكل أو مستطيل، ويمكن النُّزول إليه بسلالم من الناحيتين، وأحيانًا بسلالم من الأربع جهات لعماد البالغين. ومع إنَّ المعموديَّة في سائر كنائس العالم، كانت خارج مبنى الكنيسة؛ إلَّا أن كنيسة مصر لم تتبع هذا التقليد، بل كان يوضع جُرن المعموديَّة في الفناء الداخلي المُقابل للكنيسة، أي الرُّواق.

+ أقدم كؤوس إفخارستيَّا كانت تُصنع عادةً من الزُّجاج، أو من مواد معدنيَّة كالرُّصاص والنُّحاس الجيِّد والقصدير. ولكن بحلول القرن الرَّابع صارت تُصنع من المعادن الثمينة كالذَّهب والفضَّة.

+ انتقلت الأيقونات في القرن الرَّابع من مرحلة الرَّمز إلى مرحلة الواقعيَّة. كما أنها أبرزت

المراحل التاريخيَّة لحياة بعض القدِّيسين. كما أقامت الكنائس صورًا لشهدائها تكريمًا وتذكارًا لهم.

+ توسَّعت الكنيسة في استخدام الألحان، حيث لعبت الألحان الكنسيَّة دورًا في مقاومة الهرطقات التي ظهرت آنئذ. وفي الحقيقة، فإن الكنيسة القبطية هي أعرق كنيسة عرفت الألحان. فإن كانت مصر الفرعونيَّة صاحبة أقدم حضارة عرفت الموسيقى؛ ففي مصر المسيحيَّة نشأت أوَّل ألحان عرفها العالم المسيحي.

في الرُّتب الكنسية:

في زمن البابا أثناسيوس الرسولي، عرفنا أنَّ ليتورجيَّة كنيسة الإسكندريَّة كان بها خمس رُتب كنسيَّة، وهي: الأسقف والقسوس والشمامسة والإيبوذياكونيين والأوغنسطسيين. أمَّا في "قوانين البابا أثناسيوس الثاني" (٤٨٩- ٤٩٦م)، فأضاف عليها رُتبَتَي الإبصالتيس (المُرتِّل)، والبوَّاب.

في المعموديَّة المقدَّسة والميرون المقدَّس:

+ منذ القرن الثاني وحتى الرابع، كانت المعموديَّة تُمنح في ليلتَي عيد الفصح وعيد العنصرة، ولكن ظلَّ عيد الفصح هو الأكثر شيوعًا، إذ كان يسبقه فترة الصَّوم المقدَّس الكبير، وهي فترة مناسبة لإعداد الموعوظين المُرشَّحين للمعموديَّة. ولكن أُضيفت لهاتين المناسبتين عيد الإبيفانيا لمنح سرِّ المعموديَّة. ثمَّ اجتاز هذا التَّقليد إلى شمال إفريقيا، فإسبانيا، وبلاد الغال.

+ وبسبب ازدياد أعداد المقبولين بالكنيسة، اشتدَّت الحاجة إلى العرَّابين (الأشابين) لأجل تربيتهم تربية مسيحيَّة كاملة. ويُحدِّد التقليد المصري أن يكون الإشبين أحد الوالدين أو أحد أفراد العائلة، ولكن من نفس الجنس، ويكون مشهودًا له بالحكمة والتعقُّل، عارفًا بقواعد الإيمان.

في رفع البخور والقدَّاس الإلهي:

+ كان الاسم الذي يُعرف به القدَّاس في القرن الرابع في كنيسة الإسكندريَّة هو: "السيناكسيس"، وذلك من الكلمة اليونانيَّة "يجمع". وهذه الكلمة نجدها في القطمارسات القديمة في بداية قراءات كلِّ قُدَّاس. فالقُدَّاس أساسًا هو سرُّ "جَمْع المُتفرِّقين إلى واحد".

+ بعد أن أصبح تناول المؤمنين من الجسد المقدَّس باليد ممنوعًا منذ القرن الرَّابع، استُخدمت الملعقة (المستير) لتناول القُربان. وكان التَّناول يتمُّ من الكأس مباشرة. ولكن صار بعدها "المستير" قاصرًا على الكهنة في تناول القُربان المقدَّس، وشائعًا في تناول الدم الكريم للإكليروس والشعب.

+ كان هناك نداءٌ صريح في الطَّقس القبطي القديم بخروج الموعوظين من الكنيسة. وإن كان قد سقط هذا النداء من اللّيتورجيَّة القبطيَّة، بينما ظلَّ موجودًا في بعض الطُّقوس الأُخرى.

+ لم تكن عقيدة حلول الرُّوح القدس على الخبز والخمر، لنقلهما إلى جسد ودم المسيح قد دخلت، كحلول للتحوُّل، بمعناها في طقس الإفخارستيَّا في كنيسة مصر في القُدَّاس الإلهي القبطي في زمن البابا أثناسيوس الرسولي؛ ولكنها دخلت في زمن البابا بطرس الثاني (٣٧٣-٣٧٨م)، وذلك تدعيمًا للاهوت الرُّوح القُدُس، الذي بدأت المُنازعات اللاهوتيَّة بشأنه في ذلك الوقت.

في سرُّ الزيجة:

في بداية القرن الرابع، أصبح الاحتفال بسرِّ الزيجة ذا صفةٍ سرائريَّة، حيث حاولت الكنيسة إضفاء صبغة ليتورجيَّة على بعض الطُّقوس العائليَّة التي سادت في ذلك الوقت، مثل التوقيع على وثيقة الزواج، والمهر، والخاتم، وتشابُك الأيدي... وصار وَضْع الأكاليل على رأسِ العروسين هو قمة مراسيم الزيجة. وكان حقُّ تسليم العروسة للعريس، وضمُّ أيديهما، محفوظًا للأُسقُف أو الكاهن.

في الصلوات والتسابيح الكنسيَّة:

+ استقرَّ منذ القرن الرابع ثلاث طرائق للتسبيح: الأولى، وهي أقدمها، حيث يشترك الشَّعب كلُّه في التسبيح. والثانية، هي طريقة الأنتيفونا، وهي تُفيد "ترتيل متبادَل بين خورسين". والثالثة، وهي أداء منفرد لشخصٍ واحد، يُجاوبه: إمَّا خورس يردُّ عليه، أو الشَّعب كلُّه.

+ دخل سِفْر المزامير إلى كافة أسرار الكنيسة وطقوس صلواتها ومناسباتها. وصار يتصدَّر مقدِّمة قراءة فصل الإنجيل المقدَّس. كذلك انتشرت مُمارسة "صلاة الأجبية" أو "صلوات السواعي". وتُعتبر الأجبية القبطيَّة هي أغنى كتاب صلوات سواعي في الكنائس الشرقيَّة، إذ يحتوي على نصف سِفْر المزامير تقريبًا. وتنفرد الكنيسة القبطيَّة بترديد المزمور الخمسين في بداية صلواتها.

(يتبع)